فاسينوكين

للقصصي الفرنسي أونوريه دي بلزاك

بقلم الأستاذ ذريني خشبة

حدث أني كنت أسكن مرة فى شارع صغير يسمى شارع لديجيير ، متفرع من شارع سانت أنطوان من ناحية النبع القريب من ميدان الباستيل ، وينتهي عند شارع السيرزاي . وكنت أقضى ليالىّ فى غرفتي الموحشة فوق السطح مكباً على كتبي مستغرقاً فى مذاكراتى ؛ كما كنت أقضى سحابة النهار فى مكتبة أورليان القريبة من مسكني

وكنت آخذ نفسي بحياة التقشف والزهد ، وهى حياة لا محيص منها لكل عامل مجد ، فكنت أستكثر أن أخرج للنزهة المجردة فى البوليفار بوردون إذا ما صفا الجو واعتدل

ولم تكن قوة فى العالم تغريني بالانصراف عما أخذت به نفسى من المطالعة والدرس ، إلا هذه القوة العجيبة التى كانت تبعث فىّ ميلاً غريباً إلى لون آخر من ألوان الدراسة مختلف أشد الاختلاف عن دراساتي . . . أما ما هو هذا فهو شغف العميق بملاحظة أهل هذا الحي — فوبورج — ودرس أخلاقهم وطبائعهم . ولم أكن أتأنق فى ملبسى بل كنت أبدو بينهم فى زى أهل الأعمال وسمتهم ؛ فكان ذلك يعينني على الامتزاج بهم ؛ والانسجام كلما عادوا أدراجهم بعد الفراغ من العمل ، أو اجتمعوا لبعض شئونهم .

ومن هنا أصبحت قوة ملاحظتى لهم غريزة فى نفسى ، وملكة أنفذ بها إلى صميم أرواحهم ، وأتغلغل بواسطتها فى أدق شئونهم ، كما كان يتغلغل دراويش ألف ليلة وليلة بكلمات سحرية وتعاويذ يرددونها فى جوانح فرائسهم ودمائهم

وكنت كثيراً ما أقتفى أثر عامل عائد مع زوجته إلى بيته بعد الحادية عشرة مساء أو قبيل منتصف الليل ، بعد خروجهما من الأمبيجو كوميك لأسلى نفسى بالضرب وراءهما من البوليفاردي بونت أوشو إلى بوليفار بومارشيه

وكانوا يبدأون أحاديثهم عادة عما شاهدوا فى الملهى من التمثيل ، ثم يتدرجون من ذلك إلى أمورهم الخاصة . ولم يكن الأمهات يبالين أن يجذبن صغارهن ليلاحقوهن ، وهن يكلمن أزواجهن ، ويحسبن مصروفات اليوم التالى ... وهنا ترتفع شكواهن من غلاء أثمان البطاطس ، ومن طول الشتاء وارتفاع أسعار الوقود ، والمطلوب للخباز ومن إليه ... يتعاطون ذلك فى حوار بورجوازى ملىء بالصياح ، يشف عن طباعهم وطباعهن ، وغرائزهم المكبوتة وغرائزهن

وكنت أصغى إليهم فأحس كأنى أحدهم ... بل كنت أشعر كأنما أسمالهم على ظهرى ، ونعالهم المخصوفة تطقطق فى قدمى ، وبهم يجلجل فى صدري

* منزلة بلزاك فى الأدب الفرنسى كمنزلة دكنز فى الأدب الانكليزي . وهو من أقدر الكتاب على التصوير وتحليل المجرمين وخلجاتهم ، وهو يغلو فى ذلك حتى يحسبه القارئ من المنحطين ولاسيما حين يتناول الأدب المكشوف . وقد يشعر القارئ بملال من طول مقدماته لكنه حين يخلص إلى القصة يتنفس الصعداء . وأقصوصة فاسينوكين أحسن ما تمثل به أدب بلزاك ، ولهذا السبب اخترناها برغم مافي مقدمتها من ألغاز . ولد بلزاك سنة ١٧٩٩ ومات سنة ١٨٥٠

وشكاواهم تتردد فى قلبى ، وأرواحهم تسرى فىّ كما تنساب فيهم روحى

وعلى هذا النمط كانت أحاسيسنا كأحلام اليقظة ، تذوب معاً كما تذوب الشمعة تحت اللهب ، أسفاً على ما يصيب الانسان من ظلم أخيه الانسان ... وهكذا كنت أفرج عن نفسى بالانطلاق من دراساتى الخاصة إلى هذه الرياضة الذهنية التى كانت موهبة عظيمة منت بها السماء على ، فأصبحت لى بمثابة حاسة من البصر الروحانى ، كهذه الحاسة التى أرى بها الملموسات عن طريق عينىّ

على أننى حِرْت فى تعليل هذه النعمة الجديدة فلم أدر ما باعثها ، ولا القوة الغامضة التى تصدر عنها ؛ وكان أكبر ما يخيفنى منها أن تكون إحدى هذه القوى الكامنة التى تنتهى إلى الجنون حين يُساء تصريفها . ولم أحاول استكناه هذه القوة ، وكان يحسبنى أننى أمتلكها ، وأننى أذللها لمآربى ... وكفى ؟

ومما يجدر بى أن أشير إليه هو أننى كنت قد بدأت فى تلك الأيام تحليل الكتلة البشرية الهائلة إلى عناصرها الأساسية ، وتقدير مافى هذه العناصر من خير ومن شر . وكانت هذه الضاحية التى اخترت مسكنى فيها أحسن حقل لاستنبات تجاربى واستنباط قوانينى ، فقد كان يعيش فيها الأبطال والمخترعون والعلماء الأعلام ، جنباً إلى جنب مع الأوشاب والرعاع والهمج ؛ وكانت الفضيلة فى أسمى مدارجها ، تختلط بالرذيلة فى أحط دركاتها ؛ وكان الفقر يكتم أنفاس الجميع ، والحاجة تهيمن على الأقدار والكرامات ، والخمر هى طبيب الكل ، والنفوس الثائرة المشبوبة تتبدد فى جحيم من الألم والعوز

لله كم ألف مأساة وألف فجيعة كانت تمثل صامتةً فى ظلمات هذا البلد البائس المكتئب ! ولله كم ألف حسناء وألف قلب مضطرب لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى أغواره ليطلع على العجب العاجب من مضاحكه ومآسيه ثمة ! !

ما أشد جهلنا بقصص الحياة فى هذا الحى ، تلك القصص التى لا تصلنا روائعها إلا بطريق الصدفة ، وبلا اتفاق !

على أننى لست أدرى كيف احتفظت بقصتى التالية كل هذا الزمان الطويل دون أن أنشرها على الناس ! ربما كان هذا لكونها من الصفحات العجيبة التى تظل مطوية فى ذاكرة المرء حتى تخرج منها بطريق الصدفة ، كما تخرج (النمرة) الرابحة من صندوق النصيب ... وكم فى الذاكرة من أمثال تلك القصة ، وستظل مختبئة ثمت مثلها ، حتى يأتى دورها فلا يكون بد من خروجها منها كما خرجت

* * *

كنت أستأجر امرأة مسكينة كانت تحضر إلىّ صبيحة كل يوم لتنهض بشئون غرفتى ، فتصلح سريرى وتمسح حذائى ، وتنفض ملابسى ، ثم تعد فطورى ؛ وتذهب بعد ذلك إلى مصنع قريب كانت تعمل به فى إدارة آلة لقاء عشرة صلديات فى اليوم فى حين كنت أدفع أنا لها أربعة فرنكات شهرياً . وكان لها زوج فقير يصنع صناديق الدمام فيحصل منها على أربعة فرنكات يومياً ، وذاك هو الذى اضطر زوجته إلى العمل ليعولا نفسيهما وأبناءهما الثلاثة ويعيشا عيشة بين الرخاء وبين الكفاف

ومع ما كانا فيه من ذلك الضيق فانى لم أر مثلهما أمانة وعفاف يد . ومما أذكره لهما بخير هو وفاؤهما وحبهما لى . ففى الخمس السنوات التى تركت فيهن مسكنى ، كانت الأم ڤيلان تحضر إلىّ كل عام فى يوم ميلادى حاملة باقة من الورد ، وبضع برتقالات ، تحية لى فى هذا العيد ... وكنت أعلم أنها لم تكن تدخر فَلْساً لهذا الغرض ، ولذا كنت

أضطر — حين تأتى بالورد وبالترتقال — أن أقترض ورقة مالية بعشرة فرنكات لأدسها في يدها مساعدة لها ، مدفوعاً بعامل الحاجة الذى شربنا معاً بكأسه

إذا عرفت ذلك من أمر هذه المرأة البائسة ، فاعلم أثابك الله أنها جاءت إلىّ ذات يوم لترجوني فى أن أشرفها بالذهاب إلي بيتها للمشاركة فى عرس أختها ، وهو عرس تعرف أنت مما قدمت لك مقداره من الرونق وضيق الاستعداد

وقد وعدتها أن أذهب ، وكان أول ما فكرت فيه هو المبلغ الذى أستطيع أن أعينها به بعد أن أندمج فى العرس المتواضع كواحد من أهله

وأقيم العرس فى الطابق الأول من بيت قديم فوق مخزن للخمور بشارع شارنتون ، فى غرفة كبيرة أضيئت ببضعة مصابيح زيتية ذات مرايا من الصفيح ؛ وصفت فيها مقاعد من الخشب مجللة بسواد كئيب هو سواد القذر من غير شك ، وقد اشترك فى العرس ثمانون مدعوًّا لبسوا أحسن ما يُلبس فى يوم الأحد ، وحملوا أغصاناً من الزهر اليانع ، ثم أخذوا من الرقص بنصيب مبالغ فيه ، ومن المرح بكأس دهاق ، حتى لكأنما كانت الدنيا موشكة أن تنتهى لميعاد

هذا ، وقد جعل الرجال وأزواجهن يتبادلون تحيات خبيثات ، ويتراشقون بآهات فاضحات ... وكذلك كان يفعل الغلمان والشباب والكواعب الأتراب ... وكان يبدو على وجوه الجميع أمارات عجيبة من نشوة الفرح لا يسمو إليها الوصف ، ولا يستطيع تصويرها القلم

أفرأيت إذن إلى هذه المقدمة الطويلة المملة ؟ ! إنها لا تمت إلي قصتى بسبب ، فدعها جانباً ، ولا تذكر منها إلا أثراً طفيفاً يكون كالهواء الذى تتنفس فيه القصه ... فقط ... يجمل أن تذكر المنظر ... ومخزن الخمر الشاحب الأرجوانى ... ورائحة الخمر التى تفوح منه ... وصرخات الفرح والمرح ... وأن تتخيل أنك في هذه القاعة وسط القوم ، بين العمال المساكين والفقيرات البائسات ، تشركهم فى عرسهم المتواضع

أما فرقة الموسيقى فكانت تتكون من لاعب على كمان ، وعازف فى ناى ، ونافخ فى مزمار ، وكانوا جميعاً من أعضاء ملجأ العميان القريب . وقد دفعوا لهم سبعة فرنكات أجراً كاملا عن هذه الليلة اليتيمة ؛ وبالطبع لم يكن أحد ينتظر أن يسمع بهذا الأجر الطفيف إلى بيتهوفن أو روسينى ... ولذلك كان عزفهم (حيثما اتفق !) لأن أحداً من الموجودين بالغرفة لم يكن يعنى باحصاء الفلتات الموسيقية ، وأخطاء النوتة ، وسائر ألوان النشاز التى كان يقع فيها عميانا المحترمون ... أما أنا ... فلى الله ! لقد كانت موسيقاهم وقراً فى أذنى ، وكابوساً على قلبى ، وقد تلفت من الضيق فوقع نظرى على الثالوث الأعمى وقد رثيت لحالهم فغضضت الطرف عن ملابسهم المرقعة ، وثيابهم المرفوة ، وقد كان من العسير علينا أن نتبين سحنهم لأنهم وقفوا يعزفون فى نافذة عالية ، فكان الضوء يسقط على أقفيتهم تبعاً لذلك وكانت أوجههم فى الظلام ، ولم أدر ما ذا دفعنى نحوهم ، إلا أن تكون القوة الكامنة التى حدثتك عنها فى المقدمة الطويلة الماضية . لأننى وجدتنى أتغلغل بروحى فى كيان الأعمى العجوز الذى كان يعزف على الناي . وكان الموسيقيان الآخران فى مرح دائم وسرور مستمر . بعكس صاحب الناى الذى ما أحسب مخيلة فنان أو عقل فيلسوف قد اتفق لهما مثل خلقه أو محياه ... وتستطيع أنت أن تتخيله إذا رسمت فى ذاكرتك طيفاً لدانتى ، ودلّيت على على وجنتيه غابة كثيفة كثة من الشعر الأشيب

البراق ، ثم موّهت وجهه العبوس الصارم بما يتبع المعنى من مرارة وحزن ولأواء ... لقد كانت عيناه البيضاوان تتأججان بلهيب خفى ، تشغله رغبة ثائرة ثائرة ، فينغضن جبينــه ذو الخطوط والشقوق والأسارير ويبدو كأنه حائط أثرى لعبت فوق ملاطه تصاريف الزمان

وكان الرجل ينفخ فى نايه فى غير مبالاة وبدون اكتراث ، غير معنى بأحد ممن سعى إلى العرس ؛ وقد كانت أصابعه تتبعثر فوق مفاتح الناى فى ارتخاء وحيثما اتفق ... ولم يكن يأبه بألوان النشاز التى يحدثها بعدم مبالاته ... وكأنه كانــــ فى واد والراقصون والراقصات فى واد ... فلم يكن عزفه يؤثر فى حركاتهم أو حركاتهن ... وقد استنبطت أنه إيطالى الأرومة ، وكانت المرارة التى يُكتّمها فى أعماقه تجعل منه هوميروساً مجوزاً ، يكبت فى صميمه أوديسة قد مسحتها يد العفاء وهالت فوقها تراب النسيان ... ومع شقائه الذى ليس كمثله شقاء فقد كان عظيما فى مظهره ، وكان جور الزمان يزيد فى منظره روعة أى روعة !

إن من العواطف القوية ما يدفع الإنسان نحو الخير أو نحو الشر ، فإذا كانت الأولى خلقت منه بطلاً مغواراً ، وإذا كانت الثانية جعلت منه مجرماً أثيما ... وقد تضافرت عواطف الشر كلها فنحتت وجه هذا الأعمى الايطالى الصارم الجبار !

إنك لو رأيته لهالك أن ترى بداوات النقمة تنبعث كالشهب المحترقة من فجوتى عينيه ، أروع مما ترى إلى عصبة من قطاع الطرق شاهرة خناجرها فى فتحة كهف سحيق ، أو كما تنظر إلى سبع جائع يقضم قضبان قفصه

لقد خبتْ نيران اليأس فى صدره ، وبردت الحمم المتقذفة على جبينه ، ولــكن أثراً من دخان ذلك الماضى المؤلم كان ما يزال مكوّماً ثمت آيةً على الشــقاء القديم ... فمن هذه الجذوات الخامدة هذا القبس الذى بدأ يتضرم به قلبى ، وينساب بالحميم والمُـهل فى عروق !

أما المازفان الآخران فقد كانا يهشان للخمر ، وكانا كلما انتهت وصلة أفرغا من الزجاج فى كأسيهما فإذا شربا ما هو حسبهما ، ملآ لصاحبهما شوْباً فاحتساه فى تأدب وشكر لهما بإيماءة من رأسه ... وكانت حركاتهم فى كل ذلك مُحكمة مضبوطة حتى لتحسب أنهم غير عميان ... والعجيب من أمرهم أننى حينما دنوت منهم أحسوا بى ، بل وثقوا أن بالقرب منهم رجلا ليس من العمال الذين تــكتظ بهم الغرفة الفسيحة ، ولذا فقد فاءوا إلى وقار مصطنع ، وتمملوا الهدوء ونبل السمت

وقلت أخاطب صاحب الناى :

— من أى أطراف الأرض سمت بك قدماك يا صديقى يا صاحب الناى ؟

فقال فى لهجة إيطالية : « من البندقية ! »

فقلت : « وهل ولدت هكذا أعمى ، أم ابتليت بهذا عن عَرَض ؟

فقال : بل ابتليت به قريباً ... نقطة لعينــة ذهبت بنورها !

فقلت : إن البندقية مدينة جميلة ، ويا طالمـا حلمت بالسفر إليها !

وقد هاج ذكر البندقية شجون الرجل ، فقد رقصت أساريره وبدا عليه التأثر ، وقال :

لو أنني ذهبت إليها معك لوفرت عليك كثيراً من وقتك !

وهنا تدخل صاحب الــكمان فقال : « لا تكلم الدوج عن البندقية ، وإلا فانك تخرجه عن طوره فيلتهم كل هذه القنانى ... » وقال صاحب المزمار :

« هلم فلنعزف الآن يا دادى كنارد ! » وانطلق الثلاثة يعزفون للرقصة الرباعية ، لكن أخى صاحب الناي لم ين يفكر فى البندقية بدليل ما بدا على جبينه المجعّد من الأشراق وما شاع فى وجهه الهائل من الجذل

وقلت له : « وما عمرك يا صاحبي ؟ »

فقال : « ثنتان وثمانون ! »

فقلت : ومنذ كم سنة عميت ؟

فأجاب : ها ... منذ خمسين ! تقريباً !

وكان يرسل جوابه فى حسرة وتلدد عرفت منهما أنه كان يأسف لشيء ثمين أعز عليه من عينيه ضاع من يديه

وقلت له : إذن فلم يدعونك دوجاً !

فافتر باسماً وقال : « أوه ! إنها مزحة ! ومع ذلك فأنا نبيل بندقى ، ولو أردت لكنت دوجاً أعظم من أى دوج آخر »

وقلت له : وما اسمك أيها الأخ ؟

فقال : هنا — فى باريس — أعرف باسم بيركانيه وهو اسم أردت به تعمية السجل . أما فى إيطاليا فاسمى ماركو فاسينوكين أمير فارسيه

فقلت متعجباً : ماذا ؟ أنت حفيد الزعيم العظيم فاسينوكين الذى انتزع أراضيه دوقات ميلان ، بعد إذ استولى عليها بحد السيوف ؟!

فصاح متأثراً : « مرحى ! لقد تعرضت حياة ولده للخطر فى ظل الفيسكونتى ففر إلى البندقيه وسجل اسمه فى الكتاب الذهبي . والآن لا كين ولا الكتاب الذهبي فى هذا الوجود ! » قال ذلك وبدت عليه علائم الانفعال والتأثر ، وكانت حماسة الوطنية تهيج فى أنفاسه ، ثم يذهب بها الضيق من الحياة

وقلت أسائله : ولكنك إذا كنت فى المبدأ نبيلاً بندقيًّا فلا بد أنك كنت مثرياً واسع الثراء ، ففيم إذن بددت ثروتك ؟

فقال : فى أيام الشدة !

وكان زميله صاحب الكمان يعرض عليه كوباً من الخمر فنحاه عنه ... لأن الحديث المؤلم عن ذلك الماضى المليء أفقده شهيته إلى الشراب

مسكين هذا النبيل البندقى الذى ابتلاه الله بى ليرده فجأة إلى ذكريات ماضيه البعيد ، حين الشباب غض والصبا فى إبانه ...

ڤينيس ! هذه البندقية ! عروس الأدرياتيك !

لقد شهدت خرائب وآثاراً فى وجه هذا البندقى الذى كان كله خرائب وآثاراً ، ولقد رأيتنى أرتد إلى ما قبل نصف قرن فأمشى جيئة وذهاباً فى المدينة الجميلة التى يعشقها ساكنوها ... وهأنذا أنطلق من الريالتو إلى الجراند كنال ، ومن الريفا دجلى شياڤونى إلى الليدو ، ثم أرتد إلى السانت ماركس... تلك الكتدرائية التى لا تطاولها كتدرائية فى حسن البناء وروعة التركيب ... وهأنذا أردد الطرف فى نوافذ الكاسا دورو ذات النقوش والتصاوير ... وها هى ذى القصور الباذخات وعجائب النباتات التى تنطبع فى الذاكرة فتظل ألوانها إلى الأبد فى صفحتها كالأحلام العظيمة التى لا تقوى الحقائق المجردة على محوها

ثم هأنذا أرى تيار الحياة الجارف يرتد فيكتسح بمآسيه وأحزانه هذا النبل الذى يتطاير كالشرر فى تضاعيف الزمن !

لا جرم أن أفكارى هذه كانت تضطرب فى نفس صاحبى البندقى الأعمى ... بل هى كانت تخطر فيه أسرع ما كانت تخطر فى بالى ، لأن فقد حاسة البصر يساعد العميان على حضور البديهة وسرعة التفكير ، وتركيزه تركيزاً عجيباً

ثم ترك فاسينو آلته وموسيقاه ، ونزل عن مجلسه فى النافذة ، وقال : « هلم نخرج من هنا ! » وقد سرت كلماته فى أذنى سريان الكهرباء ، فأعطيته

ذراعي وانطلقنا من غرفة العرس ، حتى إذا كنا في الشارع التفت نحوي في انكسار وقال لي : « ألا تعيدني إلى البندقية ؟ ألا تأخذني معك إليها ؟ ألا تتنازل فتكون قائدي ؟ ألا ترد إلى ثقتي وإيماني ؟ إنك إن فعلت فإنك تصبح أغنى من عشرة بيوتات مالية من بيوتات أمستردام أو بيوتات لندن . إنك تصبح أغنى من روتشيلد ! وقصاراي أنك تحصل على أضعاف هذه الثروات الخرافية التي ربما تكون قد قرأت عنها في ألف ليلة ! »

لقد كانت بداوات الجنون تلوح في مخايل الرجل ، ولكن حرارة الإيمان التي كانت تفيض من منطقه جعلتني أطيعه ، بل جعلتني ألقى إليه زمامي — أنا البصير ! — فذهب يدلف بي نحو ميدان الباستيل في وعي عجيب ، حتى إذا كان عند بقعة موحشة دانية من النهر ، عند ملتقى ترعة سانت مارتن بالسين ... وقف قليلاً ، ثم جلس فوق صخرة ثمة ، وجلست أنا تلقاءه ... وهنا ... كان منظره رائعاً وقوراً ، وكان شعره الأشيب يتلألأ في ضوء القمر كسلوك من فضة ! وكان كل شيء ساكناً ، ولم نكد نسمع إلا ضجيج الحركة الدائبة في ظلام البعد ... وكان النسيم البليل الليلي يزيد في سحر المكان ، ويضفي إليه أستار الخيال

وبدأت الحديث فقلت له : « إنك تتحدث عن الملايين إلى فتى يافع ابن عشرين ؛ أفحسبت أنه يهاب الردى فلا يقتحمه للحصول عليها ؟ ولكن ... ليت شعري ، ألم تكن تهزأ بي ؟ »

فأجابني في اهتمام : « ألا لاطلعت على شمس غد إذا كان حرف واحد مما سأقوله لك غير صحيح ... حينما كنت في سن العشرين كما أنت الآن غض الأهاب فينان الشباب ، كنت نبيلاً بمولدي ، غنياً ضخم الثراء ... ثم ... نبض قلبي بالحب ، وجرفني تيار الغرام ، وكان ذلك سنة ١٧٦٠ ، حين ملكت لبي خريدة من صبايا أسرة قندرام ، جميلة الخلق ، فتانة الجسم ، ساحرة اللفتات ، متزوجة من أحد رجال مجلس الشيوخ الذي كان هو الآخر يعبدها عبادة ... وكم كنت ألقى في سبيل غرامي هذا من أهوال لا تصبر على بعضها الجبال ... وكم عرضت نفسي للقتل المحقق من أجل قبلة سحرية أطبعها على شفتيها الرقيقتين ... فبينا كنا نتساقى كؤوس الحب الصافي كملكين طاهرين إذا زوجها يفجأنا ، وإذا به ينقض عليّ بسلاحه يود لو أغمده في صدري فيسكت به أنفاسي ؛ وأتيت بحركة سريعة جعلته يخطئ الأصابة ، ولم يكن معي سلاح مثله ، فتمكنت لحسن الحظ من عنقه ، وقبضت عليه بكلتا يدي ثم ضغطت ضغطة هائلة ، فسقط البائس ميتاً ، في سبيل الدفاع عن عرضه ... وشرفه ... ثم أغربت بيانكا — وهذا هو اسم حبيبتي — على الهرب معي ، لكنها رفضت — ولم يكن هذا جديداً من حال النساء ... فذهبت على وجهي في الأرض وحدي ... وصدر الحكم عليّ غيابياً بالشنق واستصفاء أملاكي ، بيد أنني كنت أعرف هذا المآل من قبل ، فحملت معي جواهري وأموالي ، وخمس صور تيتيانيات — بندقيات — انتزعتها من إطاراتها ثم لذت بالفرار إلى ميلان ، ولا أنيس لي ، ولا من حبيب يواسيني إلا ... ذهبي ... ذهبي الكثير الذي أحببته قبل أن أحب أحداً آخر ... ولنذهب معي قصة تبدأ من قبل أن أنشق نفساً واحداً من هواء هذه الدنيا ، فقد قيل إن والدتي وحمت عليه وهي حامل بي ، وقد أثر ذلك في جنينها ، فلما نزل إلى الدنيا لم يكن يعشق شيئاً عشقه للذهب ... فلما شببت كنت أتزين بالجواهر واللآلئ الغالية ، وأحمل معي كيساً يحوي مائتين أو ثلثمائة من الدوقيات أبددها بغير حساب »

وحينما قال ذلك ضرب يده في جيبه ثم أخرجها

مملوءة بحفنة من الذهب ووصل حديثه فقال :
« الذهب ! آه من هذا الذهب الذى أصبح دعامة الحياة فى هذا العصر كما كان فى كل عصر ... إنى أستطيع أن أحسه على بعد وإن كنت أعمى ياصاح ! ومن غريب ما يحدث لى أننى أقف بالبديهة أمام دكان الجواهرى أشبع شيطانى الكامن بمواجهة اللآلئ وإن كنت لا أرى منهن شيئاً ... وهكذا كان هذا الشيطان رائدى إلى الخراب ، لأنه قادنى إلى القمار لألعب بالذهب ، فما زال يخدعنى حتى حطمنى ، وفقدت جميع ثروتى ... ثم عاودنى الشوق الملح للقاء بيانكا ... فاسترقت الخطي إلى البندقية ، ومازلت أطوى إليها السبيل مستخفياً حتى لقيتها ... وخبأتنى الحبيبة عندها ستة أشهر مرت كالحلم في أحسن ما يكون بين العشاق ... ووقر فى روعى أن أنهى الحياة على هذا النسق السهل الجميل المواتى ، لولا أن شعر بحالها البروفيدوتور ، فبث عيونه وأرصاده ، حتى فاجأنا يوماً فى فراشه الدافئ ، وهى غارة فى حضنى السعيد ، فكانت بيننا معركة هائلة ، لأنها من أجل الحياة ! ! على أننى لم أقتل الرجل ، بل جرحته جرحا بالغاً ... فلما صاح بالخدم أقبلوا مسرعين ، وهنا اشتدت المعركة ، وساعدتنى بيانكا في الاجهاز على الرجل ... بيانكا التي رفضت من قبل أن تهرب معي ... ها هي ذى تقف إلى جانبي لتناضل عني ، ولتتلقى عدة طعنات من أجلى ، وتتمنى أن تموت معى فى تلك المعركة الحامية ... ولما ضاق الخدم بى ، ألقوا علىّ عباءة كبيرة ولفونى بالقوة ثم حملونى إلى قارب — جوندولا — وأسرعوا بى إلى سجون البوزّى ، حيث قذفوا بى فى إحدى (زنازينه) بعد أن احتفظت بقبضة سيفى المكسور وقطعة من صفحته ، احتفظت بهما ، وصممت على حمايتهما ولو بروحى ، لعلمى أنهما أنفع لى يوماً من الأيام — ولم تكن جروحى بذات خطر ، والناس يقولون إن الجروح تندمل فى الشباب أسرع مما تندمل فى غير هذه السن

« وعرفت أننى لا بد مشنوق بعد حين ، أو فاقد رأسى . وكان القبو الذى حُبست فيه قريباً من البحر كما وهمت ، فعولت على الهرب بنقب الحائط والفرار برقبتى وروحى جميعاً

« وكان الحارس كلما فتح باب القبو دخل بصيص من النور كان يكشف على ضآلته جدران سجنى ، فرأيت مكتوباً على كل منها : (ناحية القصر) و (ناحية الترعة) و (ناحية الأقبية) . ثم لمحت رسماً على هذا الجدار الأخير لم أهتم كثيراً به ، وعرفت بعد أنه صورة للقصر الدوقي . وقد أثار فى تلهفى إلى النجاة ذكاءً حاداً لم أعهده فىّ من قبل . ولذا جعلت أتلمس الحائط بأصابعى وأتحسس ما عليه من النقوش ، وكان الظلام دامساً شديد الحلك . واستطعت آخر الأمر أن أتهجى كلمات عربية عرفت منها أن حافرها يخبر من يجىء بعده أنه قد قلقل حجرين كبيرين فى أسفل أساس البناء ، ثم أفرغ أحد عشر قدماً فى الأرض مما يلى الحجرين . وأنه كان يستعين على إخفاء آثار الحفر بنثر التراب المتخلف فوق أرض القبو حتى لا يكشفه الحارس . وكان هذا احتياطاً لا داعى له من السجين البائس ، فقد كانت أرض القبو عميقة بعدة درجات من بابه بحيث لم يكن يُعنى السجانون بتفتيشها ، ولا بإلقاء نظرة مجردة عليها ، ولم يكن منظرها فى هذا الظلام الدامس يثير شكوك من ينظر إليها

وا أسفاه ! ! لقد جهد السجين كل هذا الجهد لينجو ، لكن جهده لم ينفعه لأنه قتل ! ومما نقش فى حائط القبو عرفت أنه كان عربياً أو من أصل عربى ، فلولا إلمامى ببضعة لغات شرقية لما استطعت أن أصل ما انقطع من عمله الشاق . لأنجو أنا بنفسى ... فشكراً لهذا الدير الشرقى فى أزمير . حيث تعلمت

هذه اللغة الكريمة التي بها أفلت من سجني ! لقد ذكر المسكين في نقشه أن الحكومة البندقية قد قبضت عليه واستصفت أمواله ثم حكمت عليه بالإعدام ... فيالله ما أشبه الجدود العواثر !

« ووصلت ما انقطع من عمل الرجل، ولبثت شهراً كاملا أحفر بقبضة سيفي العزيز والقطعة التي بقيت من صفحته ، وكنت أنسرق في السرداب فوق بطني وصدري ، وأعمل أظافري في التراب .. وكلما ذكرت دنو الموعد الذي تبقى لي لأمثل أمام قضاتي ، وأن ذلك سيكون بعد يومين اثنين ضاعفت مجهودي لدرجة الاستماته حتى أسعفني الحظ ، وأدركتني رحمة السماء ، فرأيتني أصل إلى غاية لم أكن أحلم بها ..!

« وهنا .. يلعب الذهب دوره من جديد ياصاحبي العزيز ! الذهب واللآلئ ... ثروة البندقية كلها .. ذهب ... لآلئ ... ماس ... كل هذا يا صديقي خطف بصري وأذهل شيطاني

ولم يكن يحجزني عن هذا الكنز إلا عارض من الخشب كان لابد أن أزيله لأصل إلى هذه الثروة الطائلة ... فخلعت ملابسي وعملت عارياً بكل قواي حتى أزحته قليلاً ... ثم تعبت فجلست أستجم ، وسمعت باب الكنز يفتح فجأة ، فنظرت فإذا دوج البندقية نفسه يدخل ويدخل وراءه عشرة من رجاله الأقوياء ، فينظرون إلى أكوام الذهب وزنابيل اللآلئ ، ففهمت من حديثهم أن ههنا تخبئ الجمهورية ثروتها العامة وغنائمها من الغزو والحروب

وفكرت وفكرت ... فهداني التفكير إلى ضرورة إشراك السجان معي في حمل ما نستطيع حمله من هذا الكنز ، والهرب إلى أقصى آفاق الأرض ... ولم يتردد المسكين في قبول اقتراحي ، بل أقدم عليه بقلب أشجع ألف مرة من قلبي ... واتصلنا بحبيبتي بيانكا فقامت من جانبها بمساعدة هائلة ، وأعدت هي والسجان قوارب النجاة ، وبعد أن اتخذنا كل الاحتياطات الواجبة في مثل هذا التدبير دعوت صاحبي فهبطنا إلى كنز الجمهورية الثمين!

« يا لها من ليلة ! لقد وقف السجان مسبوهاً أمام زنابيل اللآلئ وصناديق الذهب ، ثم انطلق فجأة يرقص ويغني ، وينتقل كالفراشة من غرفة التحف الفضية إلى قبو الذهب ، فما شككت أن المسكين قد أوشك أن يجن ... وقد خفت أن تفلت الفرصة من أيدينا بهذا الزق وذاك الطيش ، فلم أتركه يستمر في ضحكه ورقصه وجنونه إلا ريثما أملأ جيوبي وكل فجوات ملابسي بخير ما رأيت ثمة من لآلئ وجواهر وماسات ، ثم صحت به أن يتزود ، فانكفأ يقذف في جيوبه هو الآخر ما اشتهت له نفسه ثم أمرته أن يملأ أكياساً كانت ملقاة في زاوية وأعمها ذهباً ... وحذرته أن يمس اللآلئ لأنها تنم عن حاملها فيضبط وينال جزاءه ، فعزف عنها ، في حين كنت أنا أغافله وأنتقي منها لنفسي ما أشاء فأدسه في ثيابي بين البطانة والظهارة ، وبرغم ما كان يستولي علينا من جشع فما لم نحمل من الذهب إلا ما قيمته ألفا جنيه إذا ما وزن ، وقد رشونا الحارس الواقف كالعفريت عند البوابة بكيس فيه وزنة بعشرة جنيهات ، أما اللاحون فقد أوهمناهم أنهم إنما يخدمون الجمهورية بمساعدتنا ، على ذلك أبحرنا حينما تنفس الصبح أو كاد

وحينما كنا بمأمن في عرض البحر ، عاودتني أشباح الذهب واللآلئ . واضطربت في ذهني صور الكنز العظيم الذي خلفناه وراءنا ، وبدأت أذكر ذكريات اللايين التي كانت منذ ساعة في قبضتنا ، فقدرت قيمة الفضة بثلاثين مليوناً ، والذهب بعشرين مليوناً ، واللآلئ والماسات بأضعاف ذلك ... وهنا ... شعرت بحمى الذهب تسيطر على مشاعري وتتسلط على وجداني ، وتسري في نخاعي !

ثم رسونا إلى أزمير ، وركبنا البحر ثانية إلى فرنسا ، وكم شكرت لله وصليت حينما ركبت في

السفينة الفرنسوية لأنى أصبحت بمأمن من كل عين ولأنى تخلصت من شريكى المحترم فى الجريمة ... ولم أعد أفكر فى العواقب المحتملة لهذه الفعلة الشنعاء ، بل لم أكلف نفسى قبل أن نفترق بمكالمة شريكى عن هذا الجرم ، لأنى كنت ألحظ أنه يكاد يجن من الفرح بما أفاءت السرقة عليه ... فانظر كيف اقتست المقادير منى

وقد يشدهك أن أذكر لك أننى ما عرفت شيئاً من هدوء البال حتى بعت ثلثي ما حملت من اللآلئ والماس فى لندن وفى أمستردام ، وإلا حينما تخلصت من التبر الذى مى بأن استبدلته بكل أحمر رنان وقد لبثت مستخفياً فى مدريد ما يقرب من خمس سنوات ثم رحلت إلى باريس بعد ذلك تحت اسم اسبانى مستعار ، حيث عشت عيشة كلها سعة وبلهنية

وفى هذا الجو الفردوسى من السعادة ، وفى ذاك العباب الزاخر من اللذة التى تجلبها ثروة ستة ملايين من الجنيهات ، قضت المقادير أن تبلونى بالعمى ! وقد عللوا الماهة التى نزلت بعينىّ من إقامتى فى مكان موحش — الزنزانة ! — بيد أننى عللته بما هو أدنى من ذلك إلى الحق ... ويلاه ! لقد فقدت بصرى من طول ما بكيت على بيانكا ... فقد ماتت !

ولكن لا ! ... ليس ذاك أيضاً ! فاسمع إلى تلك القصة : « لقد وقعت فى شراك حب جديد ! سيدة من غانيات باريس بحت لها فى نوبة جنون غرامى باسمى وسرى . ولقد كانت هى صديقة من صديقات مدام دى بارى ... وقد كانت هذه العلاقة سبباً فى ربط أسبابى بأسباب لويس الخامس عشر ...

وقصارى القول ... لقد ألقيت بالى كله إلى حبيبتى الجديدة التى أشارت علىّ بشد الرحل إلى لندن لاستشارة طبيب من أطباء العيون المشهورين فيها ، فسافرنا من فورنا . وبعد عيشة راضية منمقة بالقبل ، مغسولة بدموع الحب ، هجرتنى حبيبتى فجأة فى الهايدبارك ... أواه ياصديقى ! لقد هجرتنى اللعينة بعد أن ابتزت آخر دانق منى ! ومع ذلك فلم أجسر أن أحتج بكلمة ، لأنها وقفت على سرى ، ولأنها إذا باحت به ، فقد عدت إلى عدالة مملكتى لتقتص منى قصاصاً مضاعفاً ... وذاك الذي أخافنى فلم أقصد إلى أحد من معارفى لأستمده يد المساعدة

ولم تتركنى الشيطانة لشأنى بل بثت على العيون والأرصاد الذين ضقت بهم ذرعاً ، فأخذت فى مقاومتهم ، لكنهم اتخذوا تلك المقاومة حجة على اختلال قواى العقلية ، فتقدمت المرأة المخاطرة إلى مستشفى المجاذيب (جيل بلاس) تطلب زجى فيه ، فنجح مسعاها ، وحللت عليه ضيفاً غير كريم حيث أقمت بين مجانينه عامين كاملين ...

— وكأنما ثارت فى قلبها الشفقة من أجلى فأخرجتنى من هذا البيمارستان وزجت بى فى ملجأ للعميان ... أواه ! لقد عجزت أشنع العجز عن قتلها ! بل عجزت إطلاقاً عن رؤيتها ، وكنت على شراء سلاح ينفعنى أعجز منى فى الحالين !

« ولو قد كلمت سجاني بندتو كارپى قبل أن أتركه فى أزمير ، لعرفت منه موضع القبو الذى كنت مسجوناً فيه ... إذن لعدت مرة ثانية إلى الكنز ، ولانتهزت الحقبة التى غزا فيها نابليون البندقية ومحاها من الوجود .. وإذن .. لعدت غنياً من جديد ! !

« هل سمعت ياصاح ! إننى برغم هذا العمى الذى طمس عينى مستعد للذهاب معك إلى البندقية ... وكلى ثقة أننا إذا ذهبنا ، فلا بد أن أعرف مكان الكنز ... إنى ما زلت أرى الذهب برغم عماى ؛ إننى لم أفقد حاسة النظر إلى الذهب .. إنها حاسة سادسة فى طبيعتى ؛ إننى أستطيع أن أرى ذهب البندقية ولو كان مطموراً تحت الماء ... لقد دفن خبر الكنز الثمين مع جثمان ڤندرامين ، أخى بيانكا ... هذا النبيل الذى أنبأته به ليجتنبنى خصومات المشرة[1]

« اسمع ياصاح ! لقد كتبت بخصوص هذا

(١) مجلس جمهورية البندقية

الكنز إلى القنصل الأول[1]، ثم إلى امبراطور النمسا فسخرا مني، وكتبا إلى السلطات بضرورة مراقبتي أو زجي في بيمارستان ... فهلم أنت ... هلم بنا إلى البندقية ... لنذهب إليها في زي شحاذين، لنمود منها من أصحاب الملايين ... إني أستطيع بذلك أن ارد أملاكي، وستصبح أنت وارثي ... إنك ستكون أمير ڤاريزي !! »

* * *

وسكت الرجل، ودارت بي الدنيا ...

ونظرت إليه، ثم إلى السين، ثم إلى الترعة، تخيل لي أنني أنظر إلى قنوات البندقية؛ ثم رددت في وجهه المغضن عيني، تخيل لي أنني أنظر إلى جدران الباستيل، غائصة في مياه البندقية كذلك

وتلبثت برهة لا أنبس، ودار بخلدي أن الرجل قد أخذ يستريب بي، ويظن أنني أرثي له كمجنون كما رثى له الآخرون، فبدأ وجهه يتقلص، ويعتلي بالأسارير، ويعبر عما يشيع فيه من فلسفات اليأس، وخلجات القنوط

ومن يدري؟ فلربما هاجت هذه القصة ذكريات البندقية في قلب الرجل، فطفق يبكي شبابه ويئني حبه ... آية ذلك أنه أدنى نايه من شفتيه، وأخذ يلعب لحناً مؤلماً، حنوناً، لم تقع فيه لحنة أونشوز ... ولا غرو ... فقد كان لحن حبه الصائع، وشبابه المولى

ثم امتلأت عيناه المعياوان بالدموع .. وسرت الموسيقى في هواء السين تجلجل وتتكسر مع أمواج النهر .. فلو أن عابراً سهماً تحجر قلبه، لوقف ينصت إلى موسيقى الذكريات .. موسيقى لحب المنفى .. الذي يرسل من مزماره آخر صرخة من صرخات الألم وراء اسمه المنفى الممتزج بذكريات بيكانكا! ! ولكن سرعان ما علا ميزان الذهب، وشال ميزان الحب ... ونكس ميزان الشباب! !

وقال في صوت متهدج: « إني أرى الذهب دائماً، في منامي وفي يقظتي ... وإن روحي لا تني تسبح في عالم متلألئ بأضواء النضار والجواهر والماس الثمين ... إني لست أعمى كما عساك تظن، فالذهب واللؤلؤ يضيء لي حلك ليلي الدائم ... ليل فاسينو كين القديم الشاب، لا أنا ... فقد تقاص عني لقبي إلى مسمى! ! آه يا ربي!! لقد حل عقابك بالقاتل فلم تفلته ... بوركت يا قدوس! ...

ثم ذهب يردد صلوات كثيرة لم أعن بالتثبت منها ... فلما هب واقفاً قلت له: « هل سنذهب إلى البندقية؟ إني مستعد! » فتهلل وجه الرجل وصاح: « إذن لقد لقيت رجلاً بمدطول اليأس! ». ومددت له ذراعي فلف ذراعه عليه، وذهبت معه ملجأ العميان. وقد لقينا في الشارع جماعات المدعوين يصيحون ويصخبون في طريقهم إلى منازلهم

وقال لي وهو يضغط على يدي: « هل نبدأ رحلتنا من غد؟ » فقلت له: « بمجرد أن يتيسر لنا مبلغ من النقود! » فقال: « بل ننطلق على أقدامنا! إني سأشحذ! إنني ما زلت قوياً. وأنت، إنك ما تزال شاباً موفور الشباب، وستتدفق القوة في كيانك حينما تنظر إلى قناطير الذهب تخطف عينيك

* * *

وتوفي فاسينو كين قبل أن ينتهي الشتاء بعد شهرين طويلين قضاهما في مرض عضال ..

لقد أصابه برد شديد لم يمهله ... مسكين!

دريني خشبة

(٤)

(١) نابليون قبل أن يكون إمبراطوراً